القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

شقاق

عبد الحميد جودة السحار

٢٢

شقاق

١

الفُرقَـةُ شائِعةٌ بيـنَ مسـلمِى الأندَلُس ، والحـربُ دائِرةٌ بين ملوكِ الطَّوائِف . ابـنُ عَبَّادٍ مَلـك أشبيلِيَّةَ يُعاقِدُ ألفُونسو ملكَ قَشتالة ، على حـربِ ابـنِ ذى النُّون ، للاستيلاءِ على طُليطُلـة . وألفونسو ينتهِز فُرصةَ انقِسامِ المسلمين ، ليوسِّعَ رُقْعَةَ مُلكِه ، ويُقَوِّى سُلطانه ، على حِسابِ ملوكِ الطَّوائِفِ المُتنازِعين .

وجَمَعَ ألفونسو مَلِكُ قَشتالَةَ جُموعَه ، وانطلقَ إلى طُليطلة ، وحاصَرَها حتَّى خَرِبَت ، وشدَّدَ الحِصارَ عليها حتى اشتدَّ الجوعُ بأهلِها . ولم يخفَ على عُقلاءِ المسلمينَ أن هذا الانقسامَ سيؤدِّى إلى انهيـارِ صَرحِ الإسلامِ فى الأندَلُس ، وأنَّ سُقوطَ طُليطُلـةَ معنـاهُ بدايـةُ النِّهايـةِ للمسـلمينَ فـى أوربـَّة . فنهـضَ

أبو الوَليدِ قاضى باجَهْ يطوفُ بالولايات ، يدعو إلى الاتّحادِ ونبذِ الخِلاف ، للإبقاء على الأندلُس الإسلاميَّة . ولكن ذهَبتْ صيَحاتُه أدراجَ الرِّياح ، فقد أعمَتْ شَهَواتُ المُلوكِ بصائِرَهم ، فلجُّوا فى عَداواتِهم ، وظلَّتِ الحُروبُ الأهليَّةُ حامية الوَطِيس ، والعدُوُّ يتربَّصُ الدَّوائِر بهم جميعا .

ووقَفَ ملوكُ الطَّوائِفِ جامدين ، يهدون حِصارَ ألفونسو لطُليطُلة ، دونَ أن يُحرِّكوا ساكِنا . وحُوصِرَتِ المدينةُ حِصارًا شديدا ، وتُرِكَتْ لَمصيرِها المحتوم ، ورأى مُسلِمو طُليطُلةَ خِذلانَ إخوانِهم لهم ، وأنَّه لا أمَلَ لهم فى الحياةِ إلاّ بالتّسليم ، فاتّفقُوا مع ملِكِهم « القادِر » ، على أن يبعثوا إلى ألفونسَ يطلبونَ الصُّلح .

ومَشى الرُّسُلُ إلى ألفونسو ، فسدَّ أذُنَيه عن رسالَتِهم ، وأبَى أن يُصغِيَ إليهم قبلَ تسليمِ المدينة ،

فأغضبَ ذلك رجالاتِ المسلمينَ المحاصَرين ، وعزَمُوا على أن يُدافِعوا عن مدينَتِهم وشرَفِهم ، حتى الرَّمَقِ الأخير . ولكنَّ الغوغاءَ طَلَبُوا التَّسليم ، فما كان لهم هَمٌّ إلا أن يُنقِذُوا أرواحَهم من الهلاك .

وأُرغِمَ رؤساءُ المسلمينَ على إنفاذِ وفدٍ إلى ألفونسو ملكِ قَشتالَة ، يَعرضُ عليه تَسليمَ المدينة ، على أن يعِدَ بتأمينِ النّاسِ على أرواحِهم وأموالهم ، والإبقاءِ على حُرّيَةِ الدّين ؛ فَوَعَدَ ألفُونسو بذلك .

ورحلَ « القادرُ » ملكُ طُليطُلَةَ عنها ، وسُلِّمَتْ المدينةُ لألفونسو ، فطارَ صيتُه ، وازداد قُوَّة ؛ ولاحَ أنَّ بقاءَ المسلمينَ فى الأندَلُسِ صار مَرهُونًا باتّحادَ رؤسائِهم ، ولكنَّ المَطامعَ الشّخصِيَّةَ طَمسَتْ قلوبَهم ، فاستمرُّوا فى الشِّقاقِ البَغيض .

وتنمَّرَ ألفونسُو ، وسَفَرَ عن وجهِهِ الحقيقىّ ، فإذا به عَدُوٌّ لكلِّ حاكمٍ مسلم ، لا فَرقَ عِندَه بينَ

ابنِ عَبَّادٍ الذى آزَرَه يومَ أغارَ على المَمالِكِ النّصرانيَّةِ الصَّغِيرَة ، مثلَ لِيون وجلّيقِيَّةَ ونافار ، وبينَ يحيى ابنِ ذى النُّون الذى حارَبَه فى طُليطُلة . أرسلَ جنودَه إلى إمارةِ سَرقُسطَة ، فهبَّ مَلِكُها أبو جعفرِ ابنُ هود ، يدافِعُ عنها دفاعَ المُستميت ، وأرسَلَ إلى ابنِ الأفطَسِ ملكِ بَطَلْيوسَ يدعوهُ إلى تسليمِ بعضِ حصونِه ، وطالبَ المُعتمدَ بنَ عَبّادٍ ملكَ أشبيلِيَّة ، الذى أعانَه يومَ تولّى ملكه وهو مَهِيضُ الجَناح ، حتى اشتدَّ ساعِدُه ، بتسليمِ بعضِ حُصونه ، فثارَ ابنُ عَبّادٍ لذلك ، وراحَ يتأهَّبُ للقتال .

وكتبَ ابنُ عَبّادٍ إلى ملوكِ غَرناطَةَ والمَرِيَّة وبطليوسَ يدعوهم للاجتماعِ والتّشاوُرُ ، فالتأمَ عِقْدُهم فى أشبيلِيَّة ، وقرَّروا دَعوةَ يوسُفَ بنِ تاشَفين ، أميرِ المُرابطِينَ بالمَغرِب ، للّذودِ عن الإسلامِ فى الأندَلُس .

٢

وصلَ رُسُلُ ابنِ عَبَّادٍ إلى يوسُفَ بنِ تاشَفين ، يطلبونَ منه إنقاذَ الإسلامِ من سيطرةِ ملوكِ أسبانيا ، فقبلَ أن يذهَبَ بنفسِه للجهاد ، على أن يُعطِيَه ابنُ عَبَّادٍ ثغرَ الجَزيرة ، حتى يكفُلَ بذلك سَلامةَ طريقِه في الذّهابِ والعودة ، فأجابَه ابنُ عَبَّادٍ إلى ذلك .

وخرجَ يوسُفُ في جيش جرّار ، يبغِي الجِهادَ في سبيلِ اللّه . ولمّا بلغَ الجزيرةَ استقبَلَهُ ابنُ عَبّاد ، وسارَ في رُفقَتِه لقتالِ ألفونسُو ، الذى بدا نَجمُه يتألَّقُ في سماءِ الأندَلُس .

كان ألفونسو في حربٍ مع ابنِ هود ، أميرِ سَرَقُسطَة ؛ فلمّا بلغَه عبورُ يوسُف ، تركَ ابنَ هود ، وأهابَ بملوكِ أراجونَ ونافارَ وغيرِهما أن يهُبُّوا لمؤازَرَتِه في قِتالِ المسلمين ، فلبُّوا دَعوَتَه ، وتقاطَروا

عليه من كلِّ صوب ، يتصايَحونَ صيحاتِ القِتال .

وخرجَ يوسُفُ من أشبيلِيَّة ، وحولَه جنودُه البَربَرُ وجنودُ المسلمينَ من أهلِ الأندلُس ، والتقَى الجَمعانَ في سهلِ الزَّلاَّقة ، المسيحيُّونَ في ثمانِينَ ألفا ، والمسلمونَ في عشرينَ ألفا ؛ ودارتْ رَحى معركةٍ رهيبة ، معركةٍ أطيحتْ فيها رءوسُ عِشرينَ ألفا ، انتهت بفِرارِ ألفونسو ، وانتصارِ المسلمين ، ولم تكتفِ الجيوشُ الإسلاميَّةُ بهذا النَّصر ، بل تقدَّمَتْ إلى الشَّمالِ تستردُّ القِلاعَ والحُصون .

وعادَ يوسُفُ بنُ تاشَفينَ إلى أشبيلِيَّةَ منتصرا ، فأعادَ الثِّقَةَ في النُّفوسِ إلى حِين .

انطلَقَ يوسُفُ بنُ تاشَفِينَ في القصرِ وهو مأخوذ : نقوشٌ بديعةٌ تُحَيِّرُ الألباب ، وأعمدةٌ رُخامِيَّةٌ هائِلة ، عليها عُقودٌ تحملُ السَّقْفَ الذى غُطِّيَ بالزَّخارِف ، والحِيطانُ على ارتفاعِ مترين قد غُطِّيَتْ بالفُسيفِساءِ الجميلة .

وسارَ إلى قاعَةِ الاستِقبال ، تَحُوطُه الفَخامة ، وجلسَ تحتَ القُبَّةِ الفخمة ، وقَدْ راحَ ينظُرُ إلى أعمدةِ المَرمَرِ الرَّائِعة ، التى حملتْ شُرُفاتٍ ثلاثا ، تُطِلُّ على القاعة .

وجلسَ ابنُ عَبَّادٍ إلى جِوارِ يوسُف ، الذى جاءَ من الصَّحراءِ لإنقاذِ الإسلام ، وأظهَرَ له ضُروبًا من الحَفاوَةِ والكَرَم ، فإذا بالشُّعراءِ يتوافَدونَ يترنَّمونَ بكرمِ ابنِ عَبَّادٍ وشجاعةِ ابنِ تاشَفين ، وإذا بالنُّبَلاءِ والعُظماءِ يتقاطَرونَ على القَصرِ مُهَنِّئين ، وإذا بالمَلإ من الناسِ يتصايَحونَ خارِجَ القَصرِ فرِحين ، فقد ثَبَّتَ ابنُ تاشَفينَ أقدامَ الإسلامِ فى الأندَلُس ، بعدَ أن أوشكَتْ رِيحُه أن تَذهَب من تلك البلاد .

٣

وعادَ يوسُفُ بنُ تاشَفينَ إلى المغرِب ، ولكنَّ جمالَ الأندَلُس لم يبرحْ ذِهنَه . وإنَّه لَيرى رياضَها

ورياحِينَها وجنّاتِها وثمارَها وخيرَها الوَفير ، فيشغلُ فِكرَهُ بالاستيلاءِ عليها ، والقَضاءِ على مُلوكِ الطّوائِفِ الغارِقِينَ في اللّهوِ والمُجون ، ليُعيدَ للإسلامِ مجدَه الأوّل .

إنّ المُعتمِدَ بنَ عبّاد ، أقوى مُلوكِ الطّوائِف ، وأكثرِهم دَهاءً وكِياسَةً وشجاعة ، أطلقَ للذّاتِه العِنان ، حتّى إنّه يومَ عزمَ على إرسالِ حظاياهُ من قُرطُبَةَ إلى أشبيلِيّة ، خرجَ معهُنّ يُشيّعهُنّ ، فسايَرهُنّ من أوّلِ اللّيلِ إلى الصُّبح ، فودّعهنّ ورجَعَ ينشُد :

سايرْتُهم واللّيلُ أُغفِلَ ثوبُه
حتّى تبدّى للنّواظِرِ مُعلَما
فوقفْتُ ثَمّ مودّعًا وتسلّمتْ
منّي يدُ الإصباحِ تلك الأنجُما

وظلّ ابنُ تاشَفينَ يفكّرُ في أمرِ الأندلُس ، بعدَ أن تَمّ له الصُّلحُ مع ألفونسو ، وعقدَ معه مُعاهَدةً مُدّتُها

خمسُ سنين ، تعهَّدَ فيها ألفونسو ألاَّ يتعرَّضَ للمسلمين ، وأن يرفعَ الجزيَةَ التى كان قدْ وضَعها ملوكُ الطَّوائِف . واستولت عليه فكرةُ الاستيلاء على الأندَلُس ، حتّى إذا ما اشتكى إليه أهلُ الأندَلُسِ من ظُلمِ ملوكِهم ، وارتفاعِ الضرائِبِ التى يضعونَها فوقَ كَواهِلِهم ، جمعَ جُيوشَه لِغَزْوِ الأندَلُس ، لِيَضعَ المَظالِمَ عن أهلِها .

وبلغَتْ جيوشُه الجزيرةَ الخَضراء ، فخافَه ملوكُ الطَّوائِف ، وقطَعوا المِيرةَ عن جيشِه ، وأرادوا أن يصُدُّوهُ عن البلاد ، فاتَّفقَ ابنُ عَبَّادٍ مع ملوكِ الفرنجةِ على قِتالِه .

وتقَدَّمتْ جُيوشُ ابنِ تاشَفين ، تشقُّ طريقَها نحوَ حواضِرِ الأندَلُس ؛ فسقطَتْ إشبيلِيَّة ، ووقعَ ابنُ عَبَّادٍ فى يدِ ابنِ تاشَفين ، فبعثَ به إلى أغماتَ فى مُراكِش ، لِيُمضِيَ بقيَّةَ عمرِه سجينا ، فراشُه

الغَبراء ، وغطاؤه صفحةُ الهواء ، وأنيسُه البُكاء ، وقَرينُه الدَّاء ، وسميرُه كلُّ نوعٍ من أنواعِ البَلاء .

وقَصَدَ يوسُفُ بَطَلْيوس ، وقَبَضَ على مِلكِها ابنِ الأفطَسِ وقَتَلَه . ودانَت له الأندَلُسُ كلُّها . وأصبَحَتْ في حَوزَتِه إلاّ سَرَقُسطَة ، فإنَّها بَقِيَتْ في يدِ بني هُود ، لاعتِصامِهم بألفونسو ، ولِبُعدِها عن القُوَّةِ المُتَدَفِّقَةِ من المغرب .

قضى ابنُ تاشَفينَ مرةً واحدةً على الملوكِ الذينَ كانوا يديرونَ ما في حَوزَتِهم من بلاد ، إدارةً كادت تُلحِقُ بالإسلامِ البَوار ؛ ووطَّدَ ملكَه في الأندَلُس ، فكانَ ملكًا قَويًّا ، مرهوبَ الجانب ، جدَّدَ الأمَلَ في بقاءِ الإسلامِ في أسبانيا ، بعدَ أن أشرفَ على الزَّوال . وقد أمَدَّ يوسُف ، بانتصارِه في الزَّلاَّقةِ على جيوشِ ألفونسو ، في عُمرِ الإسلامِ بالأندَلُسِ أربعةَ قرون .

مات يوسُف ، واستمرَّتِ الأندَلُسُ في حكمِ المُرابطين ، الذينَ كانوا خَشِنين ، لا يعرفُونَ أساليبَ السِّياسَة ، وكانوا جامِدين ، بعيدينَ عن التّسامُحِ الذى ألِفه أهلُ الأندَلُس ، مِمَّن حَكموهُم من المُلوك .

ودَبَّ الشّقاقُ بينَ أحفادِ ابنِ تاشَفين ، طَمعًا في المُلك ، ولاحَ أنَّ الأندَلُسَ وشيكةُ الوُقوعِ في أيدى الأسبان ، الذين كانوا ينتهِزونَ فُرَصَ الشّقاقِ بينَ المسلمينَ ، لينتزعوا من العربِ المُتنازعينَ المَعاقِلَ والحُصون . ولكنْ ثارَ المغربُ على المُرابطينَ في أواخرِ القرنِ الخامِسِ الهِجرىّ ، فسقَطَتْ دَولَتُهم ، وقامَت دولةُ المُوحِّدين ، على يدِ المَهدِى بنِ تُومَرت .

وماتَ المَهدىُّ بنُ تُومَرت سنة ٥٢٤ هجريَّة ، فاتّفقَت رِجالاتُ المَغربِ على مُبايَعةِ عبدِ المؤمِنِ

ابنِ عليّ ، وكان أكثرَ رجالِ المَهدىّ عِلمًا وفَضلاً ودَهاء .

سارَ عبدُ المؤمنِ سِيرةً حَميدة ، فأحبَّه النّاس ، وكان أوّلَ من تَسمَّى فى المغربِ بأميرِ المؤمنين . بعثَ إلى الأندَلُسِ جيشًا من المُوحِّدين ، فتغلَّبَ على غربِيَة ، ثمَّ حاصَرَ المَرِيَّة ، فاستغاثَ من كان فيها بألفونسو ، فأرسَلَ إليهم حليفه محمَّدَ بنَ مَردَنِّيش ، على رأسِ جيش من النّصارَى والمَسيحيِّين ، فكسَره عبدُ المؤمن .

وظلَّت جيوشُ عبدِ المؤمنِ فى تقَدُّمِها ، تفتَحُ الأندَلُسَ بلدًا بعدَ آخَر ، حتى مات ، وخَلَفَه ابنُه يوسف ، فاستمرَّ فى جهادِه ، حتى تمَّ له فتحُ الأندَلُسِ جميعا .

ودخلَ يوسُفُ أشبيليَّة ، وبنى جامِعَها ، وأقامَ جِسرَها ، واستَتَبَّ له الأمر . وعادَ الأسبانُ إلى

حُصونِهم ، يرصُدونَ فُرصَ الضّعف ، لينقَضُّوا على المسلمين ، ويضربُوا ضَربَتَهم القاضِية .

وتولّى الأمرَ بعدَه ولدُه المنصورُ يعقوب ، فأكملَ جامعَ أشبيليَّة حتى صارَ إحدى عجائِبِ الدُّنيا ، وخرجَ لحربِ ألفونسو ، فاتّحدَ ملوكُ أوربّا ، وسارُوا لحربِ المنصور .

والتَقَى الجَمعانِ فى الأركوس (الكَرك) ، ودارتْ رحَى معركةٍ رهيبة ، قُتلَ فيها من النّصارَى أكثرُ من مائَةِ ألف ، وغَنِمَ المسلمونَ غنائِمَ هائِلة ، حتّى إنَّ العربَ كانوا يبيعونَ الأسيرَ بدِرهَم ، والسَّيفَ بنصفِ دِرهم ، والحِمارَ بدِرهم ، والفَرسَ بخمسةِ دراهِم .

وانطَلَقَ المنصورُ يعقُوبُ إلى طُليطُلة ، عاصِمةِ ألفونسو الثّامن ؛ وحاصَرَها ، فأخَذَ الجهدُ بخناقِ أهلِها ، وكادتِ المدينةُ تخِرُّ ساجدةً تحتَ أقدامِ

الأمير ، ولكنَّ أمَّ ألفونسو وبناتِهِ وحرَمَه خرجوا إلى يعقوب وخرُّوا ساجدين تحتَ أقدامِ المنصورِ يعقوب ، يتوسَّلونَ ويرجُونَ ويُلحِفونَ في الرَّجاء ، واستغاثوا به وبمروءَتِه ، فأكرمَهُنَّ ، وأعادَهُنَّ إلى مَقَرِّهِنَّ مُعزَّزاتٍ مُكرَّمات ، ورفَعَ الحِصارَ عن طُليطُلة ، وما دارَ بخَلَدِه أنَّ أبناءَ هؤلاءِ الذينَ أكرَمَهم سيضطهدونَ العَرب الذين كُتِبَ عليهم أن يُشاهِدوا زوالَ المُلكِ العَربيِّ من الأندلُس ، أشَدَّ اضطهاد .

٥

ومات يعقُوبُ المَنصُور ! وفى سنة ٦٠٩ هجريَّة ، انطلقَ ابنُه عبدُ اللّه محمدُ النّاصِرُ إلى الأندلُس ، في ستِّ مائةِ ألفِ مُقاتِل ، ليفتحَ معاقِلَ أورُبَّة . وبلَغ البابا خروجُه ، فأعلَنَ الحَربَ المُقدَّسة ، فإذا بالجُيوشِ النّصرانيَّةِ تتدفّقُ من إيطاليا وفرنسا وألمانيا إلى أسبانيا لمُلاقاته .

أعجبَ النّاصرُ بكثرةِ جُيوشِـه ، فـراحَ يفتِكُ فى سيرِه برجالاتِ الأندَلُس ، فوَزيـرُه ابـنُ جـامعِ أشـارَ عليه بذلك ، ليخلُوَ له وجهُ الأندَلُس ، دونَ الأمـراءِ المُسلمينَ جميعا . ولم يستَشِرِ رؤساءَ البـلادِ وقادَتَهـا ، بل أهملَ أمرَهُم ، مُغترًّا بالجيشِ الجَـرّارِ الـذى يُلقِـى الرُّعبَ فى قلوبِ أعدائِه .

وفى سُهُول نافار وتولوزا ، على بُعدِ مائة وأربعـينَ كيلومترًا من قُرطُبة ، فى ذلكَ المكـان الـذى يُسَـمِّيهِ العربُ العِقاب ، لكثرةِ ما كـانَ فيـه مـن العقَبـات ، التقَـتْ جيـوشُ أورُبَّـةَ المُتّحِـدَةُ بجيـوش النّـاصِرِ ، وهزَمَتْها هزيمةً نكراءَ ، كان من أثَرِهـا تمـزُّقُ جيـوشِ المُسلمين ، وسقُوطُ زهرةِ شَبابِهم قتلَى ؛ فلاحَ لكـلِّ بصيرٍ أنَّ أيّـامَ العَربِ الأخيرةِ فى الأندلُـسِ قـد لاحت ، وأنَّ شمسَهُم أوشكَتْ أن تَغيب .